

تنظيم أنصار الله «الحوثيون».. تكوينه المذهبي ومعاركه السياسية

جمال الدين إسماعيل أبو حسين

- بدر الدين الحوثي الأب الروحي لهم عد نفسه مجدداً يرفض التقليد توجه إلى إيران بصحبة ابنه حسين في نهاية حرب 1994 ومكث بها حتى 2002
- بعض علماء الزيدية وصفوا الحوثيين بأنهم «طلاب سلطة متمالكين في الاستخفاف بالدماء»
- في معركتهم السادسة مع السلطة عام 2009 كشفت الحكومة عن تورط طهران بدعم الحوثيين باكتشاف 6 مخازن للسلاح المملوكة لهم بعضها مكتوب عليها «صنع في إيران»
- تمكنوا أخيراً من التغلب على اللواء 310 مدرع والاستيلاء على كامل عتاده وأسلحته وصاروا على بعد 50 كم من العاصمة صنعاء

بدأ الحوثيون في الأسبوع الأخير من أغسطس 2014 مرحلة جديدة في حقلهم، التي تهدف إلى تعزيز نفوذ تنظيمهم، (أنصار الله)، عبر إشغال مترج تعليمية النسوية السياسية التي شاركوا فيها. بعد تخلي الرئيس السابق، علي عبد الله صالح، عن السلطة عام 2012، وصل الحوثيون إلى قلب صنعاء. استغلين قضية اجتماعية ذات طابع شعبي، هي رفع أسعار الوقود، مواصلين في الوقت نفسه محاصرة العاصمة. ولذلك، كثرت الأسئلة عن هوية هؤلاء الحوثيين، وامتثالهم السياسي، والعقدي، والمذهبي، وطبيعة تنظيمهم (أنصار الله)، الذي صار رقفاً صعباً، وربما الأصعب، في المعادلة اليمنية.

تعود بداية هذا التنظيم إلى عام 1991 عندما أنشئ تنظيم (الشباب المؤمن) في بعض مناطق محافظة صنعاء (يعتقد معظم أهلها المذهب الزيدي) والتي تبعد عن صنعاء العاصمة نحو 240 كم شمالاً- كمنزلة فكري للانتماء الطائفي، واستهدف مؤسس التنظيم بدر الدين الحوثي جمع أتباع المذهب الزيدي وعلمائه في صنعاء وغيرها من مناطق اليمن تحت لوائه، وذلك التقريب بين المذهب الزيدي والمذهب الجعفري (الآلاني عسري)، ونجح في ذلك بالفعل.

أولاً: مرجعية الحوثيين

يُعد بدر الدين الحوثي، الأب الروحي للحوثيين، أحد كبار علماء الزيدية الجارودية (2) باليمن، وقد عد نفسه مجدداً ليرفض التقليد، وانتقد العلماء الزيديين على جودهم وعدم التقارب مع المذهب الجعفري (الآلاني عسري)، وتوجه إلى إيران بصحبة ابنه حسين في نهاية حرب 1994، ومكث بها حتى عام 2002م، وكان واضحاً منذ البداية أنه لا يتبع المذهب الجعفري عند أهل السنة ومصادره، بما في ذلك الصحاحان (البحاري ومسلم)، وما أصلاً من تلق على صحتهما عند أهل السنة، وورث ابنه حسين هذا المذهب (الكوفي).

ورجع حسين الحوثي قبل أبيه من إيران، وكان تغيير اسم تنظيم «الشباب المؤمن» إلى «أنصار الله»، أولى خطواته بعد العودة.

ومع عودة حسين الحوثي إلى صنعاء بفكر جديد، مستمد من المذهب الآلاني عسري الذي يخالف مذهبه الزيدي القديم، واجهته صعوبات ثراب الصعود إلى المذهبين لعدة أسباب، منها: أن المذهب الآلاني عسري لا يعترف بإمامة زيد بن علي، مؤسس المذهب الزيدي، فهو ليس من الأئمة الآلاني عسري، الذين يمثلون ركناً رئيساً عند الآلاني عسري، لا يمكن الإقتراب منه أو تعظيمه. ومن ناحية أخرى، فإن الزيدية لا يقرن الآلاني عسرية على تحديد أسماء اثني عشر إماماً بعينهم، ولا يوافقونهم في ادعاء عصمة الأئمة الشيعية (فالعصمة عند الزيدية والسنة لا ينسبها لغيرهم ولا لغيرهم)، وكذلك يقرنهم في عقيدة النقيّة، والرجعة، والبيعة والسب الصحابي.

ولجئ تنظيم أنصار الله خلفاً في أوساط علماء الزيدية، ورغم أنه ضم بين مؤسسيه محمد يحيى سالم عزان، وهو مفكر زيدي معتدل، فإنه اختلف مع القائد الحقيقي للتنظيم حسين الحوثي، وانشق عن التنظيم، وأرجع ذلك إلى خروج الحوثي عن المذهب الزيدي المعتدل.

ورغم ذلك، لم يتخل حسين الحوثي عن أطروحاته وأفكاره التي يؤمن بها، بل لبث عليها، ونحل في صدام مباشر مع علماء الزيدية، حتى وصل الأمر إلى تحذيرهم منه (في بادئ الأمر) في بيان لهم نشر بصحيفة الأمة، وفي الصحيفة التناقلية باسم حزب الحق، حثروا فيها مما سموه (ضلالات الحوثي وأتباعه)، واتهموه بمخالفة أصول المذهب الزيدي، ومذهب أهل البيت، وتحوّله بشكل كامل للمذهب الآلاني عسري الذي لم يكن له موطئ قدم باليمن قبل ظهور الحوثيين.

وكذلك قال عنهم الشيخ مجد الدين اللؤيدي (1914م-2007م)، وهو عالم دين يمني، إن قنطرة الحوثية غريبة على المجتمع اليمني المسلم في أفكارها، وأطروحاتها، بعيدة كل البعد عن المذهب الزيدي الذي يشكل هو والمذهب الشافعي توازيين رئيسيين وفريعين في أصل عقدي واحد، هو الإسلام الجنتيف.

وقد أدى استمراخ الزيدية بالآلاني عسرية لدى الحوثيين إلى ما يمكن أن نعهده «مذهباً حوثياً» تتمثل مرجعيته الأساسية في خطابات سياسية لحسين الحوثي، تم تبريقها في مجموعة من المذكرات من قبل أنصاره، وأصبحت المرجع الأول والأساسي للتنظيم واتصافه، على عكس المذهب الزيدي، الذي يعتمد على مجموعة كبيرة من الكتب والمراجع، في اللغة وأصوله والتفسير وعلومه، والحديث ومصطلحه، والعقيدة وأدلتها، والسير والتراجم، وكذلك يختلف التنظيم عن المذهب الآلاني عسري، الذي له العديد من المرجعيات المختلفة، والتي تعتمد حياة عامة الشيعة على فتاواهم وتوجيهاتهم، ولهم مصادرهم الخاصة أيضاً من الكتب والمراجع كالكافي للطائفي، ومن لا يحضره الفقيه للقمي، والتهذيب للطوسي، والاستبصار للطوسي، وبعض كتب المتأخرين كبحار الأنوار، للباقر المجلسي، والوافي للكاظمي، وغيرها، فتجد أن للتنظيم الحوثي خصوصية في مرجعيته ومصادره التشريعية، وإن شئت فللتنظيم مذهب وأيديولوجية مختلفة عن بيئته الزيدية ووجهته الآلاني عسرية «السابقة». ويقر تلك الحقيقة عالم الزيدية محمد عبد العظيم الحوثي الذي نفي كون الحوثيين من الزيدية، أو حتى من الجعفرية (الآلاني عسرية)، وقال: هم أنفسهم يتسمون بالحوثيين (أنصار الله)، ويدعون أنهم أصحاب سيرة قرآنية لا مذهبية، والواقع أنهم (طلاب سلطة، متمالكين في الاستخفاف بالدماء) على حد قوله.

ثانياً: مرحلة التمدد ويسيطر النفوذ

غضت الحكومة اليمنية النظر عن تنظيم أنصار الله (في بادئ الأمر)، وذلك للمحافظة على توازن القوى بينه، وبين القوى السنية الممتلئة في حزب التجمع اليمني للإصلاح المعارض، والتيار السلفي التقليدي المتمثل في الشيخ مقلب بن هادي الوادعي وتلامذته من بعده من جهة أخرى.

واستغل تنظيم أنصار الله استقطاب الشباب ووجهاء القبائل، من خلال شعاراته البراقة، وكذا القيام بدور اجتماعي وخدمي ودعوي في الوقت نفسه، بينما كان هناك تناقص أو تلاشٍ لدور الحكومة ومؤسساتها المختلفة.

ففضي التنظيم بيسط نفوذه يوماً بعد يوم على حساب النفوذ والحجم السياسي والشعبي لحزب الحق، وكذلك على حساب سلطة الدولة المتأكلة ونفوذها الذي بدأ ضعفاً أو لا وجود له.

ورغم تحذيرات كثير من علماء الزيدية من هذا التنظيم الخارج على أصول الزيدية، وفكرهم، فقد استمر، بل ازداد نفوذه على أرض الواقع لهذه الأسباب:

- 1 - قيام التنظيم ببعض الأنشطة الاجتماعية، وتقديم المساعدات الاجتماعية والخيرية لعامة الشعب، والوجود بينهم بشكل شبه دائم، بل تعدى الأمر ذلك إلى دفع رواتب لبعض مؤيديه، في حين تخلت المؤسسات الحكومية عن دورها المنوط بها.
- 2 - استخدام التنظيم لأساليب وشعارات براقية تجذب الشباب للمحسن المنفذ، وكذلك وجهاء القبائل المختلفة في الكارمين لإسرائيل وأمريكا وتدخلتهما السلبية في المنطقة العربية، مثل شعارهم (الله أكبر، الموت لأمريكا، الموت لإسرائيل، اللعنة على اليهود.. النصر للإسلام).
- 3 - سوء التقدير الحكومي لقوة هذا التنظيم المتنامية، بداية من غض الطرف عن نشاطاته التي كانت تتسع يوماً بعد يوم، وزيادة نفوذه على حساب سلطة الدولة نفسها، ثم القصور الحكومي في التعامل الشامل معه، واعتماد الحكومة أن مواجهته عسكرياً كافية للقضاء عليه، مع استبعاد التوجيه الفكري العلمية المنهجية.
- 4 - الدعم الإيراني في إطار تصدير الثورة لليمن، وأخذ هذا الدعم أشكالاً متعددة، ستناولها بشيء من التفصيل لاحقاً.

ثالثاً: مرحلة التنظيم المسلح وأهم المعارك

تحول التنظيم من الدعوة الفكرية، والمناظرات مع علماء الزيدية، وطلاب المعهد الديني السني بدماج، إلى حمل السلاح، وبرر ذلك بالاستعداد للدفاع عن اليمن ضد التدخل الأمريكي المحتمل، ومع وجود سوق مفتوح للسلاح الخفيف والمتوسطة، لم يستعص على التنظيم الحوثي الحصول على السلاح، بل والتدريب عليه.

وخاض هذا التنظيم سبع معارك مع الجيش اليمني، وبعض القبائل المؤيدة له كحاشد وغيرها، خلال الفترة من 2004 إلى 2014، وهي:

المعركة الأولى: اندلعت في يونيو 2004، قتل فيها قائد التنظيم حسين الحوثي، والذي يظن الكثير من أعوانه أنه لا يزال حياً حتى هذه اللحظة.

المعركة الثانية: اندلعت في سارس 2005 لمدة أسبوعين، وكانت بقيادة الأب بدر الدين الحوثي.

لمعركة الثالثة: اندلعت في نوفمبر 2005، وشهدت بداية ظهور قائد جديد هو عبد الملك الأخ الأصغر لحسين الحوثي.

المعركة الرابعة: اندلعت في يناير 2007، بعدما أن التهمت الحكومة الحوثيين بطرد اليهود من محافظة صنعاء، تمهيداً للانفصال عن الدولة.

المعركة الخامسة: اندلعت في مارس 2008، وكانت حرباً فارقة ومختلفة عن الحروب السابقة لها، وذلك في توسع نطاق عملياتها، إذ لم تنحصر في صنعاء كما حدث في الحروب الأربع السابقة لها، بل امتدت إلى جبهات جديدة في مناطق بين أهلها بالمذهب الزيدي، ومنها مديرية بني حشيش، وهي إحدى المديرية القريبة من العاصمة صنعاء.

المعركة السادسة: اندلعت في أغسطس 2009، وكانت فيها مفاجآت وأبعاد جديدة، حيث أعلنت الحكومة عن اكتشاف ثورته لورث في دعم الحوثيين، من خلال اكتشاف ستة مخازن للسلاح والخزيرة للملوكة للحوثيين، وبعض الأسلحة المكتوب عليها صنع في إيران، وتشمل صواريخ قصيرة المدى، ومدافع رشاشة وتخيرة، أعقب ذلك بقليل إعلان الحكومة القبض على

سفينة إيرانية محملة بالأسلحة والذخائر كانت في طريقها للحوثيين. وحملت تلك المعركة خطر استمراخ الملكة العربية السعودية، وذلك بعد اعتداء الحوثيين على حدودها، من خلال التمركز بجبل الدخان، والذي يدخل جزء منه في الأراضي السعودية، حسب اتفاقية الطائف، ثم إعلان السعودية بشأن العثور على مخازن للأسلحة والذخائر بهذا الجبل، الأمر الذي جعل خطر جر المنطقة لصراع إقليمي طائفي ممانداً.

المعركة السابعة ودلالاتها:

بدأت إرهاصات المعركة السابعة، الشهيرة بحرب عمران، في مارس 2014، عندما استغل الحوثيون الإرباك المتردي في المشهد اليمني، واضطرابات الجيش المخترق من قبل رجالهم، وتشبته في أكثر من جبهة في الشمال والجنوب، فقام الحوثيون بهجوم مباغت على مواقع تابعة للواء 310 مدرع، وهو اللواء الأقوى تشكيلاً وتسليحاً، والذي تعتمد عليه الحكومة بشكل كبير في معاركها مع الحوثيين، وتحولت محافظة عمران إلى ساحة حرب، واستطاعت القوات الحوثية الانتصار على اللواء 310 مدرع، والاستيلاء على كامل عتاده وأسلحته، وقتل قائده العميد / حميد القشيمي.

وكان من نتائج هذه المعركة أن الحوثيين صاروا على بعد 50 كم من العاصمة صنعاء، مما أتاح لهم الزحف إلى داخلها، وكذلك تهجير آل الأحمر من منازلهم ومعاقبتهم في حاشد، وقد كانوا أصحاب النفوذ والمناصب في حكومات اليمن المتعاقبة، وتغيرت موازين القوى لصالح الحوثيين، وسقط معها جزء كبير من هيبة الدولة.

ولم يكن وفق إطلاق النار في كل من هذه المعارك السبع إلا بداية مرحلة جديدة يزداد فيها غياب سلطة الدولة ونفوذها عن مناطق جديدة، يكثف الحوثيون فيها نشاطهم، ويكتسبون بها براعة.

والملاحظ هو خروج الحركة الحوثية من كل معركة نخوضها أكثر قوة، وثمناً، وثمناً، بنفوذ أكبر، ومساحة على الأرض أوسع من سابقتها، فقامت دعوتهم خارج صنعاء التي خضعت لهم بشكل كامل خصوصاً بعد تهجير أهل دماج، وطلبه العلم بها بناء على اتفاق بين الحكومة والحوثيين في يناير 2014، وهكذا، صار الشمال اليمني بأكمله في قبضة الحوثيين، وبسطوا سيطرتهم عليه، حيث كانت دماج آخر معقل للدولة في صنعاء.

رابعاً: عوامل نفوق الحوثيين العسكري

ورغم أن الجيش أكثر عدداً وعدة، فإن النفوق كان دائماً للتنظيم الحوثي، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب:

السبب الأول يتعلق بالدولة نفسها:

1- تشتت الدولة بين عدة مواجهات مع الحراك الجنوبي، والقاعدة، والحوثيين في الشمال، وكذلك مطالب حزب التجمع للإصلاح التي تتعارض مع أهداف ومنهج الحكومة.

2- ضعف سلاح الجو اليمني، وهو السلاح الوحيد

السبب الثاني يتعلق بالحوثيين أنفسهم:

- 1- التمكن التربوي الأيديولوجي الذي زرعه حسين الحوثي في الجماعة لدرجة إقناعهم على الموت دون تردد أو هلع من أجل الوعد المقدس والنصر الأكيد، فهم يقاتلون عن عقيدة.
- 2- التدريب الجيد للحوثيين، واستغلال الهندة بين كل معركة وأخرى في مزيد من التدريب على استخدام الأسلحة المختلفة، وكذلك التسليح بالأسلحة المتقدمة.
- 3- توحيد الجماعات والقبائل الشيعية المختلفة تحت راية واحدة، هي راية الحوثي، فقد تحول معظم معتنقي المذهب الزيدي إلى الآلاني عسري، وانصاعت تيارات أخرى للتيار الحوثي، كالتيار الصوفي، فالمتابع مقاربة، والأيديولوجية غير بعيدة، والخضم واحد هو التيار السني، للمنظل في حزب الإصلاح أو التيار السلفي، الذي فقد مركزه في دماج، وحُجز منها.

السبب الثالث يتعلق بالدعم الداخلي والخارجي:

- 1 - الدعم الداخلي: من الرئيس السابق علي عبد الله صالح ورجاله، ووضع إمكاناتهم من سلاح وغيره، وكذلك ما نحت أقدمهم من أراض، في خدمة الحوثيين، ومن شايهم، فتال الحوثيون معدات عسكرية، وأماكن استراتيجية، ساعدت بشكل مباشر على تغيير موازين القوى، وانتقال الثقة لمصلحتهم، في غفلة من الحكومة، والقبائل السنية، أو العشائر الولائية لهم، فكان التقدم الحوثي في عدة محاور، واحتلال مزيد من المساحات الاستراتيجية المؤثرة، ولعل دخولهم مدينة عمران خير شاهد لذلك.

2 - الدعم الخارجي:

عن طريق إيران، ومر دعمها للحوثيين بعدة مراحل، بدءاً من الدعم الإعلامي عن طريق قناة

النار، وغيرها، وزيارات لأهم علماء وقادة هذا التنظيم لإيران (بدر الدين الحوثي وحسين الحوثي، وغيرهما) في أوقات مختلفة، ومكونهم هناك فترات غير قصيرة، وكذلك بعثات طلبة الزيدية للدراسة وطلب العلم من خلال جوائز إيران، وإعادة صياغة هؤلاء الطلبة بالصيغة الآلاني عسرية الخالصة، ثم أخذ هذا الدعم منحى جديداً، فوفقاً للخطاب الرسمي، تم اكتشاف مخازن للسلاح والذخيرة في مقرات وجود مقاتلي الحوثيين، مكتوب على بعضها صنع في إيران، وكذلك القبض على سفينة إيرانية محملة بالأسلحة والذخيرة، بالقرب من سواحل اليمن، متوجهة لمحافظة صنعاء أي للحوثيين، وأسر بعض المقاتلين الحوثيين من قبل الجيش، واتناء التحقيق معهم، وجدوا أنهم من حزب الله.

وكذلك اتهمت الحكومة اليمنية إيران بدعم الحوثيين، فقد كشفت مصادر سياسية ودبلوماسية يمنية، في تصريحات متتالية، عن أن إيران تدرب أعداداً كبيرة من الحوثيين في إريتريا المجاورة لليمن على الساحل الإريترى للبحر الأحمر.

خامساً: عوامل قوة الحوثيين وضعفهم

1- عوامل القوة:

- 1- ظهورهم في صورة المخلص من الظلم والفساد، حيث يستغل الحوثيون الأمانن الفريدة الخالية من الخدمات الأساسية الحياتية، وكذلك البعده عن مراكز الدعوة السلفية بأنواعها المختلفة، ويعملون فيها بجد مع العامة، ويوفرون ما استطاعوا من خدمات اجتماعية وخدمية، وخلال ذلك، ينشرون دعوتهم.
- 2- اختراق جبهات أعدائهم، سواء في الجيش، أو في الحراك الجنوبي، أو القبائل، واستغلال الفرقة بين القبائل، وجذب ما يمكن منهم للتنظيم أو تحييده، حتى يستطاع تقليل حجم الخصم، وإضعافه قبل خوض المعركة معه.
- 3- غياب الدولة، وهشاشة مؤسساتها في العديد من المدن والقرى، وبالتالي غياب نفوذها وسلطتها، واستغلال الحوثيين لهذا الغياب الاستغلال الأمثل.
- 4- تشتت التيارات السنية المختلفة فيما بينها في فروج الدين، وأولويات الدعوة، مثل الخلاف بين حزب الإصلاح، والسلفيين، والحراك الجنوبي.
- 5- جمع الشيعة باختلاف عقائدهم تحت راية واحدة، هي راية الحوثي، فجمع الحوثيون، والشيعة الزيدية، والآلاني عسرية، بل امتدت راياتهم لتجمع تحتها التيار الصوفي وغيره.

و- القتال عن عقيدة، رغبة وطمعا إما في الجنة، أو النجس المشنود.

ظهور الحوثية بوجه المتكلم عن مناصب الدولة المختلفة، بعدم تعجلهم في الانقضاض على مفاصل الحكومة، رغم قدرتهم على ذلك، في حين وقع غيرهم في هذا الشرك، فكان التعيين في المناصب المهمة على أساس الهوية الحزبية، أو القبلية، والعشيرة والتفوذ.

ثانياً - عوامل الضعف:

- 1- المسافة البعيدة بين شعار (الله أكبر، الموت لأمريكا، الموت لإسرائيل، اللعنة على اليهود، النصر للإسلام)، والواقع، فكل الضحايا يمينيون، ولا يموت أمريكي، أو يهودي واحد. كذلك، فإن اللعنة لم تسقط أمريكا، أو توقف مجازر إسرائيل ضد العرب في فلسطين، ولم يقدم الحوثيون شيئاً لنصرة الإسلام، سوى مزيد من إراقة دماء أهل اليمن المسلم من كل الطوائف، فظهر أنه مجرد شعار لجذب للمحسن من أهل اليمن فقط، ليس إلا.
- 2- لم يستطع الحوثيون نداء الاتهام بان مشروعهم يمبني على العرفية، والوطنية، وإعادة دولة الإمامية، وليس على دفع الظلم، وإقامة العدل، كما في ظاهر دعوتهم، مما يقدّم جزءاً كبيراً من مصداقيتهم.
- 3- سهولة اختراق التنظيم الحوثي، والعمل على دهمه من الداخل.

عن مجلة "السياسة الدولية"

